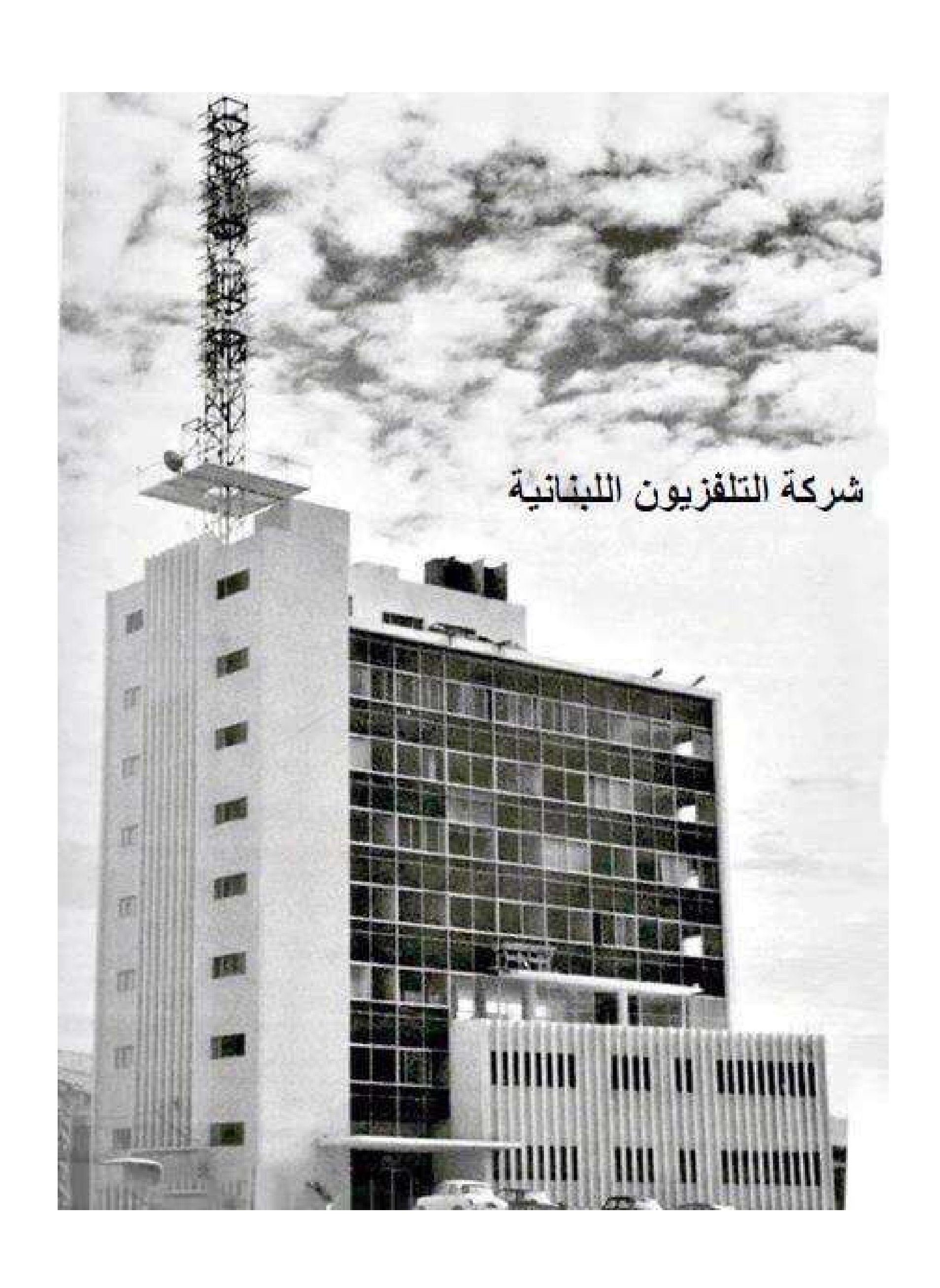
تلفزيون لبنان الذاكرة الذهبية لزمن الأسود والأبيض

زياد سامي عيتاني



إحتفل تلفزيون لبنان بذكرى ميلاده صامتاً، وحيداً، يتيماً، هرماً، متحسراً، منكسراً، مهزوماً، مرهقاً، مستسلماً!

إحتفل، دون أن يحتفل، دون بهجة، دون مظاهر إحتفالية، أنواره خافتة، ألوانه باهتة، وكأن المناسبة مأتماً أو مجلس عزاء في زمن "التباعد الإجتماعي!"

سوء طالعه ولعبة الأقدار، وسياسة الإهمال المتعمد بحقه، وقلة الوفاء، جعلت من سنواته ال ٦١ أن تنال منه، وأن ترغمه على التقاعد قبل بلوغه السن التقاعدي، وأن يعتزل في أوج عطائه وتألقه، من جراء الشيخوخة المبكرة، التي كانت كفيلة بالقضاء على أمجاده وريادته وعصره الذهبي، يوم كان أثيره يدخل قلوب اللبنانيين ضيفاً عزيزاً قبل منازلهم، دون إستئذان بالأبيض والأسود، ليلون حياتهم وسهراتهم وجلساتهم العائلية بالترفيه والتثقيف والتسلية والموعظة الحسنة.

وحّد الوطن وأسقط الفوراق:
تمكن تلفزيون لبنان أن يوحد لبنان بمناطقه واللبنانيين بمشاربهم، محطماً كل الفوارق والحواجز الثقافية والإجتماعية والمعرفية، محدثاً خرقاً وتغييراً مجتمعياً جذرياً في السلوك الإجتماعي والوعي بكل أبعاده الإنسانية عند الناس، أقرب ما يكون إلى ثورة حقيقية، ساوت بين الفقير والغني، بين النساء والرجال والأطفال، بين أهل الريف وأهل المدينة، حيث أصبح بإمكان هذه الفئات أن تتواصل للمرة الأولى بعضها مع بعض، ومع العالم الأوسع، بالصوت والصورة، وباللغة التي تتكلمها، بواسطة هذا الصندوق الخشبي العجيب الذين صاروا يتحلقون حوله، دون أن يكون هناك مناطق معزولة في لبنان منذ ذلك الحين.

في التاسع والعشرين من أيار عام 1959 بزغ فجر جديد قلب الموازين كافة رأساً على عقب، معلناً انطلاقة البث التلفزيوني لأول محطة في الشرق، سميّت آنذاك بـ «تلفزيون لبنان والمشرق». روايات كثيرة تناقلتها الألسن عن «الظاهرة» التي أحدثها التلفزيون في تلك الأيام، إذ يقال أن أهل القرى اللبنانية كانوا يلتمون في منزل أحد الوجهاء الذي مكنّته قدرته الشرائية من اقتناء ذاك الجهاز الساحر الذي سمي «تلفزيون» وكانت الجموع تملأ زوايا الصالة، حيث كانت العيون تحدّق منبهرة بهذه الشاشة الصغيرة .

كان يجمع العائلة اللبنانية في بيوتها ومنازلها على الألفة والتلاقي الإجتماعي والأسري، ويملأ سهراتها بالتسلية والإفادة في آنٍ معاً، لا صخب ولا إسفاف ولا إبتذال ولا عري، لا مبالغة ولا مغالاة ولا إسراف. بل إن برامجه كانت تعد بدقة عالية لجهة إختيار المواضيع الهادفة التي تعكس واقع حال حياتنا الإجتماعية، وتستمد منه الأفكار الإبداعية، فضلاً عن أن الإنتاج والصناعة التلفزيونية كانت تتمتع بجودة عالية وبحرفية متناهية، جعلت من تلك البرامج شكلاً ومضموناً قيمة فنية راقية ومتقونة، مع إحترام البعد الثقافي للقيم الأخلاقية والأدبية للمجتمع اللبناني.

لا مبالغة لو قلنا إن جيل تلفزيون لبنان، هو الجيل الذي تأسس وعيه، وتشكل وجدانه، بمتابعة الدراما التلفزيونية الراقية التي شكلت في ذلك الزمان أحد أهم روافد تشكيل الشخصية اللبنانية، وأمدها بزاد ثقافي راقٍ، ونماذج إنسانية وفكرية جديرة بالقراءة والتأمل والاقتداء.

إن معظم أبناء جيلنا، لديهم ذكريات لا تنسى مع دراما تلفزيون لبنان على وجه الخصوص، وأغاني المقدمة والنهاية الخاصة بها، التي نحب الاستماع إليها حتى اليوم لاستعادة مشاعر وذكريات زمان، عندما كنا ننسج مع كل مسلسل وأغنية أحلاما كبيرة، ونحلق في آفاق التاريخ الاجتماعي والثقافي والسياسي لوطننا، ونحلم بأن نكون مثل هؤلاء الأبطال الدراميين العظام.

لقد أسهم تلفزيون في تنشئة الذائقة الفنية والأدبية والفكرية والسياسية والاجتماعية لدى أجيال وأجيال على مرّ عقود من الزمن، ما جعل اللقب الأبرز الذي يطلق عليها والمطابق لواقعها الحالي هو «ذاكرة وطن»، فمهما كتب ومهما قيل يبقى الكلام قليلا قليلا، لا يفي هذه المحطة ولو جزءاً يسيراً من حقّها .فقد كان تلفزيون لبنان ملاذاً وبيتاً دافئاً، وأحياناً مكتشفاً ومنصة إنطلاق وإنتشار وشهرة كبار الإعلاميين، وحاضن تجاربهم ونتاجهم الإعلامي الذين سطّروا الجزء الجميل من ذاكرة لبنان وتاريخه .

فمن رحم تلفزيون لبنان ولد إعلاميون من طراز: عادل مالك، كميل منسى، إيلي صليبا، جان خوري، بول حتي، شارلوت وازن الخوري، عرفات حجازي، جاك واكيم، نهى الخطيب سعادة، هيفاء جارودي البابا، ماري بدين ابو سمح، ، سعاد قاروط العشي، رياض شرارة، جان كلود بولس، غاستون شيخاني، لبيب بطرس، نجيب حنكش، وفاء العود، جان دارك ابو زيد فياض، سونيا بيروتي، غابي لطيف، عفاف سنو جلول (ماما عفاف).وغيرهم من كبار الإعلاميين.

فكل هذه الأسماء من أهل الإعلام المرئي في لبنان، ساهمت في إنتشار تلفزيون لبنان، عند انطلاقته، وساهم بدوره في جعلهم رواداً في الفضاء الإعلامي المرئي، زمن الأبيض والأسود، وما زالت في ذاكرة اللبنانيين، رغم غيابها عن الشاشة منذ فترة طويلة، لأنها وطدت العلاقة بين المشاهد والتلفزيون، فكان لها مكانة خاصة لديه، وكذلك تركت أثرها الطيب على الشاشة الفضية، لاسيما أنها كانت الحارسة الأمينة على لغتنا العربية الصحيحة والراقية، قبل أن يأتي اليوم ونرى فيه تراجع اللغة الصحيحة، مقابل إنتشار وهيمنة الركاكة والرطانة!

كان "بلاتو" تلفزيون لبنان مساحة لإكتشاف مواهب الفنانين من ممثلين ومغنين وإبداعاتهم، ونحهم فرص الإنطلاق والنجاح، والمساهة في تثبيت شخصيتهم الفنية، حتى غدوا نجوماً، لينطلقوا من بوّابة تلفزيون لبنان نجوماً نحو العالم العربيّ.

فسجلات تلفزيون لبنان ما زالت حتى يومنا هذا تحتفظ بأسماء:أديب وسلوى حداد، محمد شامل، حسن علاء الدين، صلاح تيزاني، أنطوان كرباج، عبد المجيد مجذوب، هند أبي اللمع، نبيه أبو الحسن، محمود سعيد، إبراهيم مرعشلي، سمير شمص، وحيد جلال، جهاد الأطرش، وفاء طربيه، ميشال تابت، جوزيف نانو، ايلي صنيفر، ماجد افيوني، محمد الكبي، آمال عفيش، ناديا حمدي، فريال كريم، جورجيت النابلسي، عبد الكريم عمر، ابراهيم مرعشلي، هند طاهر، إحسان صادق، سميرة بارودي، أماليا ألي صالح، ليلى كرم، علياء نمري، زكريا عرداتي، عماد فريد، الياس رزق، فيليب عقيقي، وجوزف جبرائيل، هند الي اللمع، سليمان الباشا، أحمد الزين، فؤاد شرف الدين، جورج شلهوب، مارسيل مارينا، يوسف فخري... ومئات النجوم غيرهم، الذين أعطوا ما عندهم من مجهود عطائهم الفني بصدق وأمانة، فأبدعوا وحلقوا وسطعوا نجوماً كباراً، أضاءت سهراتنا.

نعم، في ذلك الزمان غير البعيد كان قدوتَنا ومثلَنا الأعلى أبطالٌ دراميون في مسلسلات تلفزيون لبنان، بعضهم شخصيات حقيقية، وقامات باسقة في تاريخنا وحياتنا وثقافتنا، وبعضهم الآخر من نسج خيال المؤلفين، وكلاهما يُجسد معنى وقيمة؛ بحيث يمكن اعتبارهم شخصيات مثقلة بالمضامين والدلالات...
فمن ينسى؟ "أبو ملحم" ذلك الشيخ الجليل مقدماً قصة مشوّقة في قالب إجتماعي يحاكي واقع تلك الأيام، الذي تحول الى شخصية نمطية لا تزال تستخدم للدلالة على أسلوب الوعظ والمثالية في الحياة. وكذلك "أبو سليم" وفرقته التي رسمت البسمة على وجه المشاهد في أعمال عديدة ومديدة. وأيضاً وأيضاً مختار "الدنيا هيك" الأديب والمربي والكاتب والفنان محمد شامل، مبتكر الشخصيات الفنية المستمدة من الواقع الشعبي البيروت، إكتسحت المجتمع اللبناني وتركت تأثيرا قلما عرفه أي برنامج آخر. وليس إنتهاءاً بالمميز الراحل "شوشو"، الذي ترك في رصيد التلفزيون كماً وافراً من الأعمال، وفي ذاكرة اللبنانيين ضحة ممزوجة بالأسى.

المحطات المضيئة في تاريخ تلفزيون لبنان المحفورة في ذاكرة اللبنانيين الفنية والثقافية والأدبية كثيرة كثيرة، فمن يسعه أن ينسى أعمالاً مميزة ورائدة من مستوى: "التائة"، "سر الغريب"، "مياسة"، "آثار على الرمال"، "ربيع"، "حتى نلتقي"، "تمارا"، "رصيف الباريزيانا"، "أبو بليق"، "بربر آغا"، "المشوار الطويل" الذي جمع الفنان المصري الكبير الراحل محمود المليجي مع الفنان المسرحي المميز "شوشو" في أول دور غير كوميدي يؤديه "شوشو" بإتقان منقطع النظير، فبكى خلاله حتى أبكى!

وقد تميّز تلفزيون لبنان بإطلاق ثنائيات فنية برعت وأبدعت، وتمكنت من أن يقتدى بها لعشاق تلك الأيام، ومما لا شك فيه أن أشهرها على الإطلاق، ثنائي الأميرة الفاتنة هند أبي اللمع وفتى الشاشة اللبنانية الوسيم في حينه عبد المجيد مجذوب، اللذان جمعتهما عدة أعمال، كانت الأكثر رواجاً وقتها، من أبرزها: "حول غرفتي"، و"آلو حياتي" (وقد باتت هذه الكلمة تتردد على ألسنة العشاق عند تبادل أي مخابرة هاتفية)، و"لا تقولي وداعاً"، و"عازف الليل"، وقد حملت هذه الأعمال توقيع زوجها المخرج الراحل أنطوان ريمي.
وتجدر الإشارة أن هند قد حققت نجاحاً في أعمال أخرى إلى جانب محمود سعيد في "السراب" وأنطوان كرباج في "ديالا"، وآخر من وقف أمامها كان إحسان صادق في "هنادي."

كما تكررت البطولة الثنائية بين الزوجين إلسي فرنيني وجورج شلهوب في أكثر من عمل منها: "مذكرات ممرضة"، و"رحلة العمر، و"الصمت"، كما شاركت فرنيني أكرم الأحمر بطولة "ميليا"، علماً بأن هذا الأخير كان قد شكلّ ثنائياً متناغماً مع آمال عفيش فأطلا معاً في أكثر من عمل منها "حكايتي" و"سحر."
كما تعلّقت قلوب المشاهدين بمحمود سعيد وسميرة توفيق في المسلسل البدوي "فارس ونجود" واحبوا كثيراً جاد الثنائي سمير شمص ونهى الخطيب سعادة في أحد أروع إنتاجات الدراما اللبنانية "النهر" للمخرج إيلي سعادة .

ومن الروايات العالمية التي تحولها تلفزيون لبنان إلى عمل درامي "البؤساء" للأديب الفرنسي فيكتور هوغو وقد جسّد أدوار البطولة ببراعة متناهية كل من أنطوان كرباج وإيلي ضاهر ومارسيل مارينا وأحمد الزين.

كما أن تلفزيون لبنان أعطى حيزاً للمسلسلات التاريخية في إنتاجه الدرامي، فأبدع عبد المجيد مجذوب في أداء دور "المتنبي" ومحمود سعيد في دور "أبو فراس الحمداني ."

وكان للأعمال البوليسية التشويقية نصيبها أيضاً، فمما لا شك فيه، أن رائعة أغاتا كريستي التي نقلها إلى التلفزيون الكبيران أنطوان ولطيفة ملتقى وحملت عنوان "عشرة عبيد زغار"، كانت من أهم إنتاجات تلفزيون لبنان في حينه.

في سياق الحديث عن الإنتاج المحلي لتلفزيون لبنان الذي إستقطب وصنع نجوماً كباراً، أصبحوا رواداً في عالم المرئي، من أن نذكر بكثير من التقدير والإمتنان أصحاب الفضل الكبير في الصناعة التلفزيونية اللبنانية والعربية التي كان رائدها تلفزيون لبنان، وهم كبار المخرجين والكتاب المبدعين، أصحاب الأيادي البيضاء الذين يعود لهم الفضل في إنتاج الأعمال النوعية، وفي مقدمهم الكتاب: محمد شامل، وجيه رضوان، مروان العبد، أنطوان غندور، أديب حداد، أحمد العشي، شكري أنيس فاخوري. أما المخرجين الذين ترجموا السيناريوهات إلى أعمال درامية وبرامجية: أنطوان ريمي، منير أبو دبس، يعقوب الشدراوي، ريمون جبارة، ألبير كيلو، إيلي سعادة، نقولا أبو سمح، جان فيّاض، باسم نصر، سيمون أسمر، إبراهيم قعوار، وكثير غيرهم من خيرة الكتاب والمخرجين...

حتى إعلاناته كان لها نكهة خاصة، التي غالباً ما تكون مقرونة بأغنية من تأليف وتلحين وغناء كبار الفنانين، ما زالت عالقة في أذهاننا حتى اليوم، ونرددها بشكل لا شعوري بين الفينة والأخرى، ونستخدم عباراتها وجملها، وكأنها باتت جزءاً من قاموسنا الشعبي ولغتنا المحكية. فمنذ ستينيات القرن الماضي حتّى اليوم، بقيت تلك الإعلانات اللبنانية التي كانت تُبثّ على تلفزيون لبنان، في أذهان اللبنانيين. من لا يتذكّر إعلان مسحوق "يس" ؟ والجملة المشهورة فيه التي يرددها أبو فؤاد "يس٣/١"؟ أو إعلان "نيدو" وأغنيته التي تناقلت عبر الأجيال؟ أو أغنية "إعلان "تاترا"؟ أو إعلان البطارية" Ray-o-vac ؟ وكم مرة سألنا بعضنا "شو بطاريتك؟" وإعلان جبنة "كيري" وجبنة "بيكون"؟ و غيرها...

مرت السنون ال ٦١ بسرعة على تلفزيون لبنان.. تحامل عليه الزمن دون رحمة (!) بات على هامش المحطات اللبنانية، التي نشأت على أمجاده، لتشن عليه بواسطة مراجعها ومموليها حرباً شعواء، وتحاصره من كل الجهات، لتتفشى الأمية في زمن الفضائيات المتوحشة، متسببة بتراجع مخيف للثقافة واللغة الصحيحة والفن الراقي، على حساب الفن الإستهلاكي الهابط والبرامج الساقطة، بعدما حل "البوتوكس" وعمليات التجميل والأجساد العارية مكان الإبداع والعطاء، حتى أصبنا بحالة مزمنة من فقدان ذاكرتنا الثقافية والفنية الوطنية.

18 آذار/ مارس 2022

الأستاذ زياد سامي عيتاني إعلامي لبناني وباحث في التراث الشعبي.